

رسالة الطالب العربي

لحضرة صاحب السعادة الأستاذ محمد العشماوى بك

المستشار لشكى راتب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى

قصدت حين اخترت "رسالة الطالب العربي" موضوعا للحدث أن أتحرر مما يقتضيه البحث من جهد وعمق فلا يرتفع بجي انى مرتبة المحاضرة وما تتطلبه من مقدمة وتفصيل وتحليل، وأن يكون سببى حديثا مرسله له صفة الحديث، وهى أنه ذو شجون، فأطلع المستمع بما يعرض للذهن من خواطر وذكريات يطمئن لها خيائى وشعورى حين يجرى حديث العرب. وهأنذا فى مكانى هذا أذكر مواقف ماثلة أمامى على الرغم من بعد الشقة وتنازع الأحداث. فى صيف سنة ١٩٣٧ وقفت على رابية من ربي لبنان الجميل أخطب كشافة العرب اللبنانيين وعراقيين وشاميين وفلسطينيين فكنت أبصر بعينى بعض انبعاث العربية وأستجمع بخيالى نأى الأقطار والديار فلا ألمح حدودا بين بعضها وبعض إن هى إلا أمة واحدة فى رقعة من الأرض واحدة يؤلف بين أجزائها ماض واحد وحاضر مشترك ومستقبل منشود يحفز شبابها المثوب أمل قوى فى تجديد الحضارة العربية وبعث المجد الذى حفلت به صحائف التاريخ. وكذلك لا أنسى أنى وقفت أخطب شباب العراق وأتحدث فى مذياع بغداد بفعلت أسائل نفسى: أفى بغداد أنا أم فى القاهرة، وعلى ضفاف دجلة أو على شاطئ النيل السعيد، أو غريب أنا فى هذه الديار أم أنهم بين عشيرتى وأهلئ! والآن أتحدث لجمع يضم شباب العرب من أقطار شتى فى ظلال الجامعة المصرية فلا أجد فى نفسى شعور الغريب يتحدث الى الغريب وإنما أشعر حق الشعور بأنى أتحدث الى طائفة من بنى قومي ليس بيننا وبينهم من الفوارق غير نأى اندار وشط المزار، توثق بيننا أمتن الروابط الثقافية والروحية، ويهدينا الى المستقبل قبس تلك الحضارة العتيده التى انتظمتنا جميعا فى الماضى فحفلت منا أمة موحدة فى عقيدتها وأهدافها من المثل العليا.

إن رسالة الطالب العربي هى رسالة الجليل. وهى رسالة المستقبل القريب، فهذه الجماعة التى تألفت من الطلاب العرب فى كلية الآداب لترسم الطريق لتحقيق الرسالة عليها أن تبدأ بتهيئة نفسها لخوض غمارها وتستوفى من ألوان الإعداد ما يكفل لها النجاح فى مهمتها. فأول ما يجب أن يفكر فيه الطالب العربي هو إعداد نفسه وتكوين ذاته. وأرباب الرسائل لا يكون مهمتهم ارتجالا ولا يرقبونها عفوا وإنما يحققون فى أنفسهم قدرة الاضطلاع بالأعباء. وما لاريب فيه أن الإعداد الصحيح للطالب العربي يجب أن يتناول

الجسم والخلق والثقافة . وهؤلاء فريق من طلاب العرب قدموا مصر ليقتربوا من جامعها ثقافة وعلما . ومصر حين تقوم نحوهم بواجبها وتفتح لهم صدرها إنما تؤدي اليهم دينا في عنقها فإن علماءهم وأدباءهم دانوها في مفتاح نهضتها وفي ماضي حصارها وقد بايعت الأمم العربية اليوم مصر بالزعامة في الأدب والثقافة والاجتماع والسياسة فمن واجب مصر الزعيمة أن تعرف هذه الزعامة حقها وأن تنهض بتكليفها وأن تخصص الطلاب العرب برعايتها ورغدها .

ولعل ما يحسن أن يتوجه اليه الطالب العربي في الأخذ بأسباب رسالته أن تكون ثقافته كاملة فتحن بنو زمان هيمن فيه العلم على الأدب والقانون وعلى الطب والمهندسة ومرافق الحياة كلها في السلم والحرب . فالإعداد العلمي ضروري لمعالجة هذه الحياة . ولن يصلح الآن أن يستقبل المرء حياته معتمدا على التجربة أو متكللا على الحظ . فذلك إن أجدى عرضا على فرد فلا يجدى على أمة ، وإن صلح في عصر فلا يصلح لهذا العصر الذي هيمن العلم على كل مرافقه وأوضاعه .

وعلى الطالب العربي وهو يستكمل ثقافته أن يضع ماضي العروبة نصب عينيه . فان كان خيرا ترسمه أجمع ، وإن كان اخيرا فيه مخلوطا بالشر نفي عنه شره واستبق الخير ، وإن كان قد غلب الشر في حقبة من الزمن وجب اختطاط خطة تقوم على الخير الغالب ، وإن وراء العرب لماضيا حافلا بالمفانير وحضارة امتدت الى ما وراء العمان ، وكان سبيل الأولين من أسلافنا أن يتفنعوا بما يستطيعون الانتفاع به من علوم الأمم وفسفقاتها ونظم الحياة فيها فاتخذوا من مختلف الأخلاط مزاجا جديدا له روعته وبق هذا المزاج حتى صار أساما لحضارة الغرب الحديثة فردّه الغرب اليها غريبا علينا . فمن واجب الطالب العربي ألا ينسى ماضيه لأنه حلقة الاتصال بالماضى والامتداد الى المستقبل ، واذا أهملنا هذا الماضى فقد أهملنا مجدا عظيما تتقطع بنا الأسباب دونه ، ونفقد ما لنا من طابع وروح . كيف نزهد في ماضى ينطوى على المثل العالية في التفدية والجهاد ويصور لنا عظمة في الخلق وقوة في العقيدة دانت بها ممالك الدنيا جمعا ؟ فننتبين سر هذا الماضى ، ولتعرف كنه هذه الحضارة ولتدبر الأسباب التي تقضت هذا الحكم وهدمت ذلك البناء ، وليكن ذلك التدبر وسيلة الى العظة والاعتبار ، فنأخذ من الذرائع ما يكفل النهوض وتجنب من العلل ما طوى للعظمة العربية علمها الخفاق .

فإذا عرف الطالب العربي ماضى الأمة العربية بأمجادها ومفانيرها ووضعت له أسباب تدهورها ونموذج جذوتها وكان قبل ذلك أخذنا من المعرفة بالقسط الأوفى بدأ يدرس الحاضر وأدواءه ، فالطبيب لا يجدى علاجه إذا لم يكن تشخيصه للرض صحيحا وان تفيد العقاقير مهما تكن قيمتها شيئا ، وإن كثيرا من المصلحين لتذهب جهودهم هباء على الرغم من قوة

عزيمتهم وحسن بلائهم لأنهم لم يفقهوا البيئة التي حاولوا إصلاحها ولم يتلمسوا العوامل المؤثرة فيها ولم يتعلموا كيف توجه الشعوب وكيف تواجه العنل .

فيمكن هم الطالب العربي أن يدرس العنل الحلقية والاقتصادية التي أثرت في البلاد العربية فردتها عن الصدر، وقد تكون هذه العنل واحدة تشترك في معانيتها سائر أقطار العرب وقد تكون لكل قطر عنته الخاصة به . فعلى كل طالب أن يتفهم العنل التي ينفرد بها وطنه الأصغر، ثم يتفهم العنل المشتركة التي تصيب وطنه الأكبر . وإن كانت هناك فرقة استجلى أسبابها ودواعيها، وإن كان هناك جهل أو ضعف خلقى تفحص معادله وبواعثه، وإن وجد تخلف في ميدان الصناعة أو التجارة استهدى إلى بواطن هذا التخلف ومتى فرغ من هذا الدرس وافحص أمكن له أن يرسم منهاج سبباً تهتممة علمية خلقية عملية على أساس قويم .

وجدير بكل طالب عربي أن يتأمل له الوطن الأصغر والوطن الأكبر، فوطنه الأصغر شبهه بالأمرأة تضم ما لها من أبناء، ووطنه الأكبر شبهه بالأمة تحوى سائر الأسر . وإني لأتصور الأمم العربية كلها أسرة كبيرة واحدة، فيها أب واحد وأم واحدة، فشاء ذلك الأب أن يوفر لبيته الكثيرين أسباب الاستقلال والاعتماد، ففرقهم في منازل شتى يعنى كل منهم بشأنه ولكن تبقى بينهم أواصر القربى تجمعهم تحت لواء واحد وتؤلف بينهم عند الأحداث فإذا هم صف كأنه البيان المرصوص . وإحقق أن من يزور الأقطار الشقيقة يحس هذا الشعور وهو يجتاز بلداناً إلى بلد ويتنقل بين أهل وأهل فلا حدود ولا فوارق وإنما هو وطن بيمد الأطراف وحدت بين أجزائه المترامية روابط الدين واللغة والثقافة، وألفت بين قلوب أبنائه آمال متشابهة وأهداف مشتركة .

ولا أظن أن ثمة رابطة أقوى من الرابطة الثقافية في وصل الشعوب بعضها ببعض . فالأمم العربية بخير ما تونقت وروابط الثقافة بين شباب العرب، لأنها توحد بين الأفكار وتجمع بين القلوب ويتسنى بها لكل رابطة سياسية أو اقتصادية أن تجد طريقها إلى القبول . ولا يستطيع أحد أن يتصور أمماً تتفرق بعد أن يتم التوحد بين قلوبها وأفكارها وأمانها جميعاً .

ومما نوصى به الطالب العربي أن يؤمن إيماناً عميقاً بأن اللغة الفصحى هي أس الاتصال بين الأمم العربية، وأنه يجب أن يقوم على دعائها صرح الثقافة العامة، فلقد طوفت في الشام والعراق وغيرها مما كان يتيسر لي تقارب الفهم والإفصاح عن مكنونات النفس إلا حين اخترت الفصحى أسلوباً للحدِيث . فإذا تدمست اللهجات أفسدت ما بيني وبين محدثي من تعارف وأسأمتنا إلى الشاكر البغيض . فالفصحى هي التي تجمع شملنا، وهي التي تقارب تفكيرنا

فليكن من مهمتنا نحن الدعاة إلى الوحدة العربية أن نحرص على الفصحى وأن ندانى بين الأساليب في شتى الأقطار، وأن نعمل على تيسير هذه اللغة لكي يسهل لنا استخداماتها والثقافة المشتركة بين الناطقين بالضاد .

ولقد أشرت في مطلع حديثي إلى ضرورة إحيائنا لماضينا ، وقد يقال إن لكل أمة من الأمم العربية ماضيا خاصا . والواقع أن هذا الماضى مشترك بين أمم العرب لأنها كانت تخضع في حقيقة الأمر لنظام واحد وتستمد حضارتها وأنماط حياتها وتفكيرها من منبع واحد في الأكثر الغالب ، فن أركان رسالة الطالب العربي إحياء ماضى العروبة في التفكير وعرض هذا التراث الفكرى العظيم في إطار جديد . فذلك الماضى يستند إلى دين محكم وضع نظامه ليواجه مشكلات الحياة في كل عصر وكل بيئة ، ولكن لا بد لنا من أن نتفهم روح الدين السامية على وجهها الصحيح خلاصة من البدع محررة من الجلود . فلو استمسكنا بذلك النظام الذى وضع أساسه ديننا القويم لاستطعنا الخروج سالمين من نواب الزمن التى يرجع مصابنا بها إلى تنكبنا ذلك الطريق المستقيم . على أن لنا مع ذلك ماضيا تاريخيا يحمل بنا أن نحياه في أنفسنا معترين به ليكون حافزا لنا على التوثب والرقى . ولنا كذلك تراث أدبى وعلمى عنى به علماء العرب قبلنا وكان له أثره في اتساع آفاق تفكيرهم الفلسفى والاجتماعى . فيجب أن يكون لنا في هذا التراث ما رب عظيم ، وأن نعمل على تجديده وتنظيمه بما يلائم تطور الفكر الإنسانى وأن تقرب موارده للدارسين والباحثين وطالبي المعرفة . فقد طالما طالعنا لحقائق بأن كثيرا من نظريات آبائنا السالفين في نواحي العلم يؤيدها الفكر الحديث ويحتفل بها العلماء المعاصرون .

غير أننا مع احتفائنا بذلك التراث العظيم ودعوتنا إلى إحيائه والانتفاع به لا يجوز أن نتعصب له ونطرح ماعداه فنقول إن ثقافتنا كل شيء في الحياة وأننا نستغنى بها عما سواها بل نعمل كما عمل أجدادنا العرب ونستنهج طريقهم في اكتساب المعرفة ، فلقد نشدوا العلم من شتى مصادره وفرضوه على كل مسلم ومسلمة وقربوا إليهم العلماء دون تفرقة بين أصيل ودخيل ، فأنقذهم لواء الحضارة في بحر نهضتهم وبخروهم لدولتهم ووصولهم فأنترؤد من العلم الصحيح حيث يكون ، فالعلم لا حكرة فيه لأحد ولا وطن له ولا دين .

وإنه لمن تبشير الخير في الشرق أن يهد أبناءه ليتلقوا العلم من جامعة مصر ، ومن تبشير الخير في مصر أن تفتح جامعتها الأبواب لكل وافد عربي . ولقد كنت أتحدث إلى بعض أولى الأمر في البلاد الشرقية أثناء جولاتي فقلت له في سياق الحديث : لم تنشئ كل من سورية والعراق وفلسطين جامعة ؟ وليس إنشاء الجامعات بالأمر الهين ولا يقصد به مجرد المظهر ، فقليل ما يتوافر العلماء . وقليل ما يتيسر المال اللازم للإنشاء . ولم لا تكون الثقافة الجامعية

في الشرق موحدة ، فتكون جامعة فؤاد الأول في مصر جامعة الشرق كله يفتد إليها الطلاب العرب فيترددون زاد إخوانهم طلاب مصر العرب ؟

• •

إني كلما أفضت في حديث مشكلة اجتماعية يملكني عاملان : عامل يأس وعامل رجاء ، وهذا هو شعوري بعد أن أتمت برسالة الطالب العربي فيحضرنى عامل الرجاء حين أرى طائفة من شباب العرب فيها غيايل الرجولة الكاملة تنكر في العرب وثقافة العرب ومستقبل العرب ، وتكون من أنفسهم جماعة تدعو إلى رسالتها وتنظم المحاضرات في موضوعاتها فهنا يقوى الرجاء ويبتسم المستقبل. ويحضرنى عامل اليأس حين أفرس في الحياة الاجتماعية التي يحيها العرب في كفافها ، فأرى في بعض ما أرى نوعا من الانقسام ، وألاحظ بلبلة في الرأي ، وتباعدا عن فكرة الوطن الأكبر واشغالا بتوافه الأمور عن جلائها ، وهنا يلاحقني التردد في الاطمئنان إلى الأمل والرجاء . ولكن إذا كانت عوامل اليأس مما تجوز لمن هم على عتبة الشيخوخة أمثالي ، فإن الشباب يجب أن يمتلكوا أملا وطموحا وثقة بالغد المتظر ، وأن يكونوا رسل إيمان و يقين في المستقبل المنشود فانهم بهذا الروح تلين لهم الصعاب وتفتح لهم أبواب الجهاد لتأدية رسالتهم العظمى ، رسالة الانهاض للشعب العربي وردة إلى مكانه في الصدر الأول وإسلامه إلى مستقبل ميون الطلعة مبارك ان شاء الله .

محمد العشماوى

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

”حديث شريف“